

الزوايا المغربية في القرن 11هـ/17م

قراءة تركيبية

نغيسة الذهبي

تقتضي صياغة موضوع يتعلق بالحركة الصوفية، وبدور مؤسسة "الزوايا" في تاريخ المغرب الحديث، استحضار عدد من المعطيات، أهمها:

1- ملاحظة الخط التصاعدي للحركة الصوفية من ق 9 هـ/ 15 م إلى القرن 11 هـ/ 17م، كمّا، ودوراً، ومشاركة اجتماعية، وتأثيراً.

2- تطور مؤسسة الزوايا وذلك بشكل فعلي، عندما خاض رجالها في توجيه الرأي، وتحديد الدور المتمثل في المحافظة على وحدة البلاد وهيبتها. ويظهر ذلك من خلال المشاركة في أخذ البيعة للسعديين، والمساندة الفعلية في تأطير الجهاد، وهو بناء جديد لتجاوز الدور التقليدي لهذه المؤسسة¹.

3- بلوغ مستوى الطموح السياسي لسد الفراغ الذي نتج عن ضعف القيادة السعدية منذ بداية القرن 17 م عندما دخل أرباب الزوايا مجال الصراع، ونظروا لمسألة المشروع من زاوية عدم احترام مبدأ حماية دار الإسلام، والإخلال بإحدى قواعد الإمامة، وهما السمتان اللتان وسم بهما أمر تسليم محمد الشيخ المامون مدينة العرائش للإسبان سنة 1019هـ/1610م.

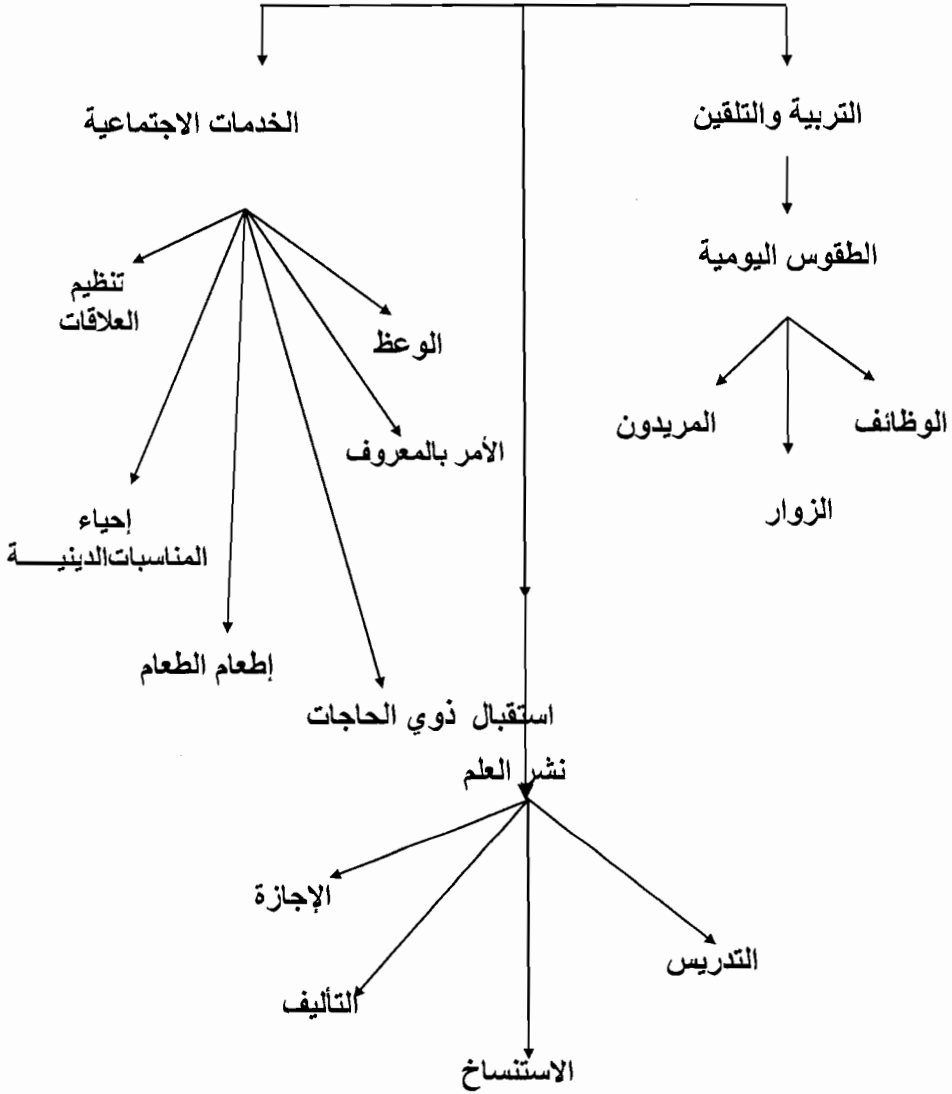
وقد تعاملنا مع هذا الموضوع انطلاقاً من سؤال مركزي حول الكيفية التي تفاعلت بها كل زاوية من الزوايا التي طبعت تاريخ القرن 17 م مع الظرفية العامة.

¹ - تزعمت الحركة الصوفية الجزولية تنظيم بيعة الشرفاء السعديين وأيدت سلاطينهم بشكل فعلي وإن اختلفت العلاقات بينهم وبين هذه القوة الشعبية التي ساندتهم حسب متطلبات المصالح السياسية للدولة. والمؤكد هو تأثير الحركة في مرحلة التأسيس ودورها في التعبئة الشعبية منذ البداية إلى جانب المشاركة الفعلية في معركة وادي المخازن.

وقبل محاولة رسم أبعاد هذا الموضوع، لابد أن ننطلق من الحديث عن الزاوية كفضاء لممارسة الدور الصوفي فهي المكان الذي تنبثق منه تجربة تستمد بعدها الروحي من تجربة سابقة أو تمثل حلقة جديدة لنهج معين، ولكنها تشترك مع غيرها في القيام بأدوار التلقين والتربية وتنظيم العلاقات البشرية، كما تجمعها بها أبعاد التأثير في حياة الأفراد اليومية. وإذا كانت شعاراتها حاملة لنفس الأهداف فإنها لا تمثل بالضرورة نفس التوجهات، إذ يبقى لكل شيخ أسلوبه في التربية، ودوره في التأثير داخل محيطه الحضري أو البدوي. لكننا - مع ذلك - يمكن أن نوحّد الرؤيا حول ما هو عام ومميز لأدوار مؤسسة الزاوية ولمنطلق عمقها الاجتماعي.

ولكي نعمل على إيجاد بعض الإجابات أو التوضيحات بخصوص السؤال الأساسي المطروح، لابد أن نحدد الزوايا التي يشملها حديثنا، وإن كنا في الواقع ننطلق من الاختصار على أهمها، ونختار نماذج بشكل معياري نعتمد فيه على قراءة خاصة بتمثيل الأدوار البارزة في تاريخها. وسبب هذا التحديد هو أن الفترة المعنية بالدراسة شهدت انتشاراً واسعاً لظاهرة الزوايا أصولاً وفروعاً، ويتضح ذلك من إلقاء نظرة على خارطة توزيع هذا المؤسسة المقدس. فالزوايا الشاذلية النهج بأسانيد جزولية أو جزولية زروقية عرفت حضوراً كمياً جعل كتب المناقب تصف المرحلة بعصر التصوف. وعند استعراض النماذج المقصودة نلاحظ أن أغلبها أنشئ في القرن 16م، أما القرن 17 فكان حاسماً في إبراز نوع التطور الذي ميز بعضها سياسياً أو فكرياً.

الزواوية



السلطة الدينية والتأثير الفكري

(1) الزاوية السملالية أو زاوية الشيخ أحمد بن موسى الذي عاش من النصف الثاني من القرن 9 هـ/ 15 م (853 - 1460 م/ 971 - 1564 م) إلى النصف الأول من القرن 10 هـ/ 16 م وأسس أول زاوية بتازروالت سنة 1520-1521 م قبل أن تتحول مع حفيده بودميعة إلى إمارة في القرن 17 م².

(2) الزاوية الشرقاوية أو زاوية أبي الجعد التي بدأت نواتها الأولى في دير تادلة في بداية النصف الثاني من القرن 10 هـ (1554 م - 1557 م/ 960 - 964 هـ). وتأسس مركزها الأول في أبي الجعد في نفس المرحلة بينما يعود بناء المركز الثاني إلى مستهل القرن 17 م (1008 - 1009 هـ/ 1599 - 1600 م) وذلك قبل وفاة مؤسسها أبي عبيد محمد الشرقي بن أبي القاسم الزعري الجابري سنة 1010 هـ/ 1601 م³.

(3) الزاوية الناصرية أو زاوية تمكروت التي تأسست منذ نهاية القرن 16 م (983 هـ/ 1576 م) على يد الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد الأنصاري (938 هـ/ 75-1576 م) وواصلت نشاطها أيام حفيده أحمد بن إبراهيم الأنصاري، لكن الحديث عنها بنسبتها الناصرية مع رئاسة الشيخ محمد بن ناصر الدرعي منذ سنة 1052 هـ/ 1642 م هو حديث عن أهم مراحل تاريخها؛ بنشاطها العلمي وقوتها المعنوية والمادية، وازدياد فروعها في عدة مناطق من المغرب⁴.

(4) الزاوية الدلانية (أو البكرية) حوالي سنة 974 هـ/ 1566 م على يد الشيخ أبي بكر ابن سعيد الصنهاجي المجاطي بالدلاء⁵.

(5) الزاوية الفاسية أو زاوية سيدي عبد القادر الفاسي كما تعرف اليوم، تأسس مركزها الأول في حيّ المخفية من عدوة فاس الأندلس على يد الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي سنة

² - حول تاريخ تأسيس هذه الزاوية، انظر دراسة خ. الراحي: مساهمة في دراسة تاريخ الزاوية السملالية في مرحلة التأسيس، د. د. ع، الرباط، 1993.

³ - حول مراحل تطور هذه الزاوية، انظر: أ. بوكاري، الزاوية الشرقاوية زاوية أبي الجعد ودورها الاجتماعي والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة، 1989، في جزءين.

⁴ - انظر تفاصيل تاريخ هذه الزاوية عند أ. عمالك، الزاوية الناصرية ودورها الاجتماعي والسياسي من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي (1052 - 1325 / 1642 - 1907)، الرباط، 2001.

⁵ - يمكن الرجوع إلى الدراسة المستوفية التي أنجزها محمد حجي حول هذه الزاوية.

989هـ/1581م بينما أنشأ أخوه عبد الرحمان بن محمد الفاسي (العارف) المركز الثاني بحي القلقلين من عدوة فاس القرويين سنة 1027 هـ/ 1617 م، وهي من الزوايا المغربية التي كان لها تأثير علمي واجتماعي واضح. أما من الناحية السياسية فيبدو حضورها القوي من خلال مجموعة من المؤشرات أهمها التوفيق بين مساهمة الرأي العام في فاس، والمحافظة على العلاقة المخزنية، وبذلك احتلت مكانة الصدارة في سلم التراتبية الصوفية خلال العهد العلوي الأول⁶.

(6) زاوية المخفية أو زاوية الشيخ محمد بن عبد الله معن الأندلسي تأسست فعلياً سنة 1038هـ/ 1640 م وكان شيخها من أكبر مريدي الزاوية الفاسية وقد ورث الطريقة والنهج بعده كل من الشيخ قاسم الخصاصي الأندلسي (ت. 1083 هـ/ 1673 م) ثم بعده أحمد بن محمد بن عبد الله معن؛ أي أن شؤنها عادت إلى آل معن بعد وفاة الشيخ الخصاصي. وهي من الزوايا التي ساهمت في تنشيط الحياة الفكرية والروحية خلال هذا القرن في فاس. ونسجل في هذا السياق أنها تجتمع مع الزاوية الفاسية في علاقات متعددة أهمها علاقة الاستمداد والسند، وبواسطتها تتصل حلقات أسانيد الطرق الصوفية اللاحقة بالفاسيين. وقد كانت لها كسابتها مكانة خاصة عند رجال المخزن.

(7) الزاوية العياشية أو زاوية سيدي حمزة كما تسمى اليوم. تأسست على يد الشيخ محمد ابن أبي بكر العياشي سنة 1044 هـ/ 1634-35 م وكان الشيخ من أكبر مريدي الزاوية الدلانية. وبإشارة من شيوخها قام بتأسيس زاويته التي اجتمعت حولها قبائل الأطلس الكبير الشرقي في هذه المرحلة. وقد اعتبرت الزاوية العياشية امتداداً للزاوية الدلانية وضمن عصبيتها القبلية، لذلك عاش رجالها الأزمة السياسية التي عصفت بزاويتهم على يد السلطان المولى الرشيد العلوي. فقد كان قراره هو تهجيرهم إلى مدينة فاس حيث قضوا سنة كاملة من

⁶ - بخصوص هذه المرحلة من تاريخ الزاوية يمكن الرجوع إلى عملنا حول الزاوية الفاسية التطور والأدوار، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001.

المعاناة لكنهم تجاوزوا هذه الأزمة بعد أن اتضح موقفهم⁷

وإلى جانب هذه المؤسسات هناك زوايا قديمة تجددت شعاراتها وتأطيرها الشعبي خلال هذا القرن مثل زاوية آل حنصال⁸. والزاوية العيساوية⁹ وغيرها من الزوايا التي لن نقيمها في حديثنا في هذا العرض. كما أننا نتعرض إلى جانب الزوايا لبعض الحركات التي قامت باسم الجهاد من منطلقات دينية صوفية ونركز هنا على ثورة ابن أبي محلي، ويحيى الحاحي، والمجاهد العياشي كما نأخذ من بين الزوايا، المشار إليها ما ينسجم مع رؤيا التحول الأفقي والدخول في الهياكل المتصارعة من أجل السلطة لنترك جانب القراءة الخاص بالجانب الطريقي والأدوار الدينية والعلمية كإطار آخر لدراسة مستقلة.

كيف تفاعلت الزوايا مع ظرفية القرن 17 م؟

بعد الاستقرار السياسي الذي حققه السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي باعتماد نظام اقتصادي محكم مرتكز على التجارة الخارجية، نلاحظ أن هذا التوجه سيكون من أسباب التغيير الذي شهده المغرب مع مطلع ق 17 م، إذ كان الارتباط بالتجارة الخارجية قد أخضع

⁷ - يمكن الوقوف على بعض الجوانب من إشعاع هذه الزاوية وتاريخها من خلال عملنا: اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، فهرس ابن سالم العياشي، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1996.

⁸ - يرجع تاريخ زاوية أحنصال إلى بداية القرن 7 هـ / 13 م، أسسها الشيخ سعيد أحنصال - الشهير بسعيد الكبير - قرب مدينة بني ملال. وكانت طريقته صالحة فقد عرف بصحبته للشيخ أبي محمد صالح الماجري دفين أسفي. انقست الزاوية الحنصالية عبر تاريخها إلى ثلاثة فروع أكثرها نشاطاً في المرحلة التي نعتي بها هو الذي ترأسه الشيخ أحنصال سعيد بن يوسف الذي تآكدت علاقته بالدلائيين، وبعده واسع من الصوفية والزوايا وخاصة الناصريين بعد سياحته الطويلة. وقد أسس الزاوية الجديدة بأغبالو - غربي ووزغت - خلال القرن 17 م. أما خلال القرن الموالي فستعيش الزاوية ظرفية حرجة.

انظر مادة أحنصال في معلمة المغرب، المجلد الأول ص. 183 وما بعدها.

⁹ - الزاوية العيساوية أو زاوية الشيخ محمد بن عيسى (الكامل) من أشهر زوايا مدينة مكناس. يرجع تاريخ تأسيسها إلى أوائل القرن 10 هـ / 16 م إبان مرحلة الصراع الوطني السعدي وهي زاوية جزولية بأسانيد مباشرة عن الشيخين عبد العزيز التباع وأحمد الحارثي.

تقف المصادر عند ذكر سيرة الشيخ المؤسس إلى حدود وفاته سنة 933 هـ / 1530 م فتذكر اشتغاله بالتدريس والوعظ وطريقته الصوفية الجزولية السنية قبل أن تنتقل إلى وصف مرحلة القرن 17 م التي تحولت الطائفة العيساوية خلالها إلى مواسم واجتماعات تمارس فيها مجموعة من الطقوس الغريبة وهي طقوس وصفها الشيخ عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي في ابتهاج القلوب بنوع من الزندقة.

انظر ما يهم الطريقة ومصادر تناولها ضمن دراسة عبد العزيز عموري: الزاوية العيساوية ودورها الاجتماعي والروحي والسياسي من القرن 10 إلى 13 هـ / 16 - 19 م، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب، سايس، فاس، 2003.

المغرب لمتغيرات ظرفية السوق الأوروبية. فبعد أن كانت الموانئ المغربية تزود التجار من فرنسا وإيطاليا وإنجلترا بالمواد الإفريقية (الذهب- النحاس- السكر - ملح البارود...) ظهرت المنافسة البرتغالية من أجل إلغاء الوساطة المغربية التركية التي دفعت إلى تحويل الخط التجاري الصحراوي نحو الشرق، إلى جانب ضعف السلطة المركزية السعدية بعد قيام الصراع بين أبناء المنصور، وبعد تفكك مركزية الحكم وظهور مملكتي فاس ومراكش. وإذا أضفنا إلى ذلك الخطأ السياسي الذي ارتكبه محمد الشيخ المامون بتسليم مدينة العرائش للإسبان، ثم مواجهة السعديين لمقاومة القبائل الزنجية في السودان وضعف العائدات، فإننا نستحضر بدون شك المعارضة الشديدة التي بدأت تظهر في الأقاليم، ومنها معارضاة تحمل النفس الصوفي. ومن أبرزها:

■ حركة ابن أبي محلي التي انطلقت من الساوره في سنة 1610 م¹⁰ كرد فعل ضد الانحراف وكان منطلقه هو إيديولوجية المهدوية. فقد نادى بالخلافة الإسلامية، وادعى النسب العباسي وأشار إلى أن المهدي ربما يكون من ذرية العباس. وقد أثرت دعوته ولو إلى حين واستطاع أن ينتصر على القوات السعدية في أول لقاء بسجلماسة في ربيع عام 1611م ومن ثم أصبح يراقب الطريق التجاري بين فاس والسودان. وقد بلغت حركته منطقة درعة في مرحلة ثانية، وكانت سيطرته على لكناوة حيث ضرب النقود باسمه وجمع القوات التي نجحت في اقتحام مراكش ودخول قصر البديع مما دفع السلطان زيدان السعدي إلى الاستصراخ بأبي زكرياء

¹⁰ - الفقيه الثائر أحمد بن عبد الله بن القاضي بن أبي محلي ولد ونشأ في سجلماسة ثم كانت له مرحلة إقامة في فاس من سنة 980 إلى 1572/986 - 1578 حيث تعلم على شيوخ المرحلة. وتبدأ سمات الانعزال والنزعة الصوفية عند ابن محلي في المرحلة الثالثة من حياته عندما أقام - قبل معركة وادي المخازن - عند شيخه محمد بن مبارك الزعري ليعود إلى سجلماسة ويستقر في الساوره من 1002 إلى 1019 هـ/ 1594 - 1610 م. أما المرحلة الرابعة من حياته فهي مرحلة دخوله الصراع مع الشيخ عبد القادر بوسماحة من 1012 إلى 1019، وهو صراع عكس تكوين الرجلين ونظرتهم للأمور الدينية والعامة. وقد رأى ابن أبي محلي في قيامه على المخزن السعدي حاجة الأمة إلى إمام. وكانت المسوغات التي اعتمدها هي أن التطناحن بين الملوك وتعددهم يدعو إلى القيام عليهم، خاصة وأنهم تخلوا عن الجهاد، وسلموا مدينة العرائش للإسبان. انظر دراسة ع. القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر، منشورات عكاظ، 1991.

الحاحي¹¹ من سوس، ليتم القضاء على ثورة ابن أبي محلي في معركة جيليز سنة 1022 هـ.

في هذا السياق، تجدر الإشارة إلى المحاولة التي قادها الحاحي بدوره، فقد قام من تارودانت في محاولة ثورية دامت 13 سنة، وهي المحاولة التي انتهت على يد رئيس زاوية إيليج أبي حسون السملالي سنة 1035 هـ.

■ حركة المجاهد العياشي في منطقة الغرب: انطلقت منذ سنة 1621م¹² وزادت قوتها بعد عودته من دكالة، حيث وصل نفوذه إلى الشمال وإلى مدينة فاس. وإلى حدود تاريخ طلب أهل فاس لهذه الحماية، فإن علاقته كانت طيبة وممتنة بالشيخ محمد بن أبي بكر الدلاني الذي أيد خطته وراسله، وندب القبائل لمؤازرته وكان يبعث إليه بالمقاتلين عند الحاجة ويقدم له الإعانات المادية. وقد بلغت درجة اقتناع الدلانيين بحركته وشخصه أن كان الشيخ محمد بن أبي بكر الدلاني يدعو له دعاء خاصا مع أوراده¹³.

وقد استمرت هذه العلاقة الودية في أيام محمد الحاج الذي قاد بنفسه حملة لنجدة العياشي والقضاء على فتنة الحيابة والشرافة بعد أن تكررت غاراتهم على مدينة فاس. غير أن الصفاء بين الطرفين لم يدم طويلا لأن طموح محمد الحاج جعله يصل إلى الثغور والمراكز التي دخلت في نفوذ العياشي. وقد بدأت الخلافات بين الطرفين حول مجموعة من المصالح

¹¹ - أبو زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي (ت. سنة 1035 هـ) الذي قضى بمحاولاته الرئاسية على مجد ديني وعلمي لأسرة شريفة إدريسية النسب شهيرة الذكر في منطقة سوس. انظر حول حركته: م. اليفرنى، نزهة...، تحقيق ع. الشاذلي، ص. 306 وما بعدها؛ م. السوسي، المعسول، ط. 1، 1998، ج 19، من ص 73؛ إيليج قديما وحديثا، المطبعة الملكية، 1966، ص. 16، 52، 53.

¹² - محمد بن أحمد المالكي الزياني السلاوي، أصله من قبيلة بني مالك من العرب الهلالية المستوطنة في بلاد الغرب. كان من أخص تلاميذ الشيخ عبد الله بن حسون الذي شجعه وأشار عليه بالجهاد، فبدأ بنوع من التطوع وجمع المجاهدين لمقاتلة البرتغاليين في الجديدة. لكن نجاح البرتغاليين في الوصول إلى حاشية السلطان زيدان وتآليه عليه جعله يتعرض لمحاولة انتقام نجا منها ليصل إلى سلا عام 1023 هـ/ 14 - 1615 م وهي المرحلة التي احتل فيها الإسبانيون ثغر المعمورة. ولم ينهض السلطان لمقاتلتهم رغم نداءات الاستجداد. وبدلا من ذلك، تشير المصادر إلى قبوله لهدية من النصاري بالمقابل. من هنا قام العياشي بحركة قوية للجهاد وامتد نفوذه إلى أقاليم الشمال ووصل إلى حد حماية فاس من هجمات الحيابة والشرافة.

انظر حول تفاصيل الحركة: ع. الشاذلي، الحركة العياشية، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1982.

¹³ - الناصري، الاستقصا، ج 6، ص. 91.

والأمور، لكن أبرز حدث فجر تلك الخلافات تمثل في اعتراض الدلائيين على سلوك العياشي وعلى موقفه المتشدد من الأندلسيين في قضية الرباط فقد حاصرهم وهدر دمهم وأباح أموالهم، وبذلك بلغ الأمر بينهما إلى حد المواجهة أكثر من مرة في أواخر سنة 1050 هـ/ 1641م. وانتهت الحركة بقتل المجاهد العياشي على يد جماعة من الخلط في 9 محرم 1051 هـ/ 21 أبريل 1641م.

* الزاوية الدلائية¹⁴:

من أشهر الزوايا التي خاضت في أمور السياسة خلال القرن 17م، مع رئاسة محمد الحاج بن محمد بن أبي بكر الدلائي، الذي حظي بالبيعة سنة 1061 هـ/ 1651 م وخاصة من أهل فاس حيث كتبت في القرويين وحضرها أعيان المدينة. وقد أسس محمد الحاج الزاوية الدلائية الحديثة¹⁵، كما أسس عاصمة وقصراً وكل ما يدل على الرئاسة الدنيوية. وبدأ في قيادة الجيش والقبائل وأحرز عدة انتصارات انطلاقاً من حملته الأولى عندما التقى بقوات محمد الشيخ المامون السعدي عند أبي عقبة، وفي الحملة الثانية عندما هب لنجدة المجاهد العياشي لصد هجمات الحيانية وشراكة المغيرين على فاس ثم واجه شرفاء سجلماسة، وزحف في جيش جرار على تافيلالت أوائل عام 1056 هـ/ 1646 م فكانت بينه وبين مولاي محمد العلوي وقعة القاعة المشهورة التي اشتهر فيها الدلائيون ودخل محمد الحاج إلى سجلماسة وأباحها للبربر، ثم تصالح الطرفان على اقتسام مناطق النفوذ¹⁶ مع احتفاظ الدلائيين

¹⁴ - أسسها الشيخ أبو بكر بن محمد بن سعيد الصنهاجي المجاطي بإشارة من شيخه أبي عمرو القسطلي حوالي سنة 974 هـ/ 1566 م وقد مثلت منذ نشأتها مركزاً دينياً وعلمياً ازداد إشعاعه ودوره في الأطلس المتوسط، وكانت الزاوية تستقبل المريدين والطلبة والفقراء والوافدين، ولم تخرج عن نهجها أيام الشيخين أبي بكر وابنه محمد. غير أن رئاسة محمد الحاج، وهو أكبر أبناء محمد بن أبي بكر، كانت تمثل نزوعاً واضحاً للسياسة والاستقلال بأمور الحكم، بعد أن تأكد ضعف النفوذ السعدي واستبد عدد من الثوار بالمناطق المغربية.

¹⁵ - هي التي تقوم على أنقاضها حالياً زاوية آيت إسحاق في الطريق بين خنيفرة وقصبة تادلة. انظر: م. حجي، الزاوية الدلائية.

¹⁶ - تم الاتفاق على اعتبار ما دون جبل العياشي من الأقاليم الصحراوية من نصيب المولى محمد بن الشريف وما فوقها من البلاد خاصاً بالدلائيين. واستثنى محمد الحاج من منطقة نفوذ الشرفاء خمسة مراكز هي الشيخ مغفر في أولاد عيسى بالرتب (على الضفة الغربية لوادي زيز)، والسيد الطيب في قصر السوق، والسيد أحمد بن علي العثماني في بني عثمان من الخنق (وهو عبارة عن عدة قصور تقع على نحو 27 كلم شمال قصر السوق)، وقصر كلميمة في وطن غريس (غرب قصر السوق على طريق ورزازات وهي اليوم ضمن أراضي بربر آيت مرغاد)، وقصر أسير في بلد فركلة (على ضفاف وادي فركلة غرب قصر السوق على بعد حوالي 86 كلم).

بخمسة مواقع في المنطقة الخاضعة للشرفاء اعتباراً لأهميتها وموقعها الحيوي. لكن مولاي محمد هاجمها واستولى عليها بعد أن تنازل له والده عن البيعة. ومن هذا المستوى بدأ الحديث عن التوتر في العلاقة بين الطرفين إلى أن انتهى الأمر بنجاح المولى الرشيد بن الشريف في القضاء على الزاوية ودحر رجالها في معركة سهل بطن الرمان عام 1079هـ/ 1668م وأمر بهدمها وترحيل أهلها إلى فاس¹⁷.

وفي ظل المعاناة الدلانية يمكن الحديث عن الزاوية العياشية التي مال رجالها إلى المحافظة على الدور الديني والعلمي وأكدوا عدم انخراطهم في السياسة وهو ما سمح بعودتهم في بداية عهد المولى إسماعيل سنة 1083 هـ/ 1672 م بعد أن قضوا سنة من الغربة والمعاناة في فاس التي أمرهم المولى الرشيد بالانتقال إليها، ويدل موقف المولى الرشيد المتشدد من العياشيين على أن هذه الزاوية كانت تدخل في دائرة العصبية الدلانية، وفي دائرة المراقبة، وأنها مثلت إحدى زوايا القرن 17 م التي عانى أهلها من الصراعات السياسية.

* الزاوية السملالية في إيليج¹⁸:

يعود تاريخ الزاوية إلى حركة الشيخ أحمد أوموسى البومرواني السملالي السوسي منذ نهاية القرن 9 هـ/ 15 م. وقد تحولت هذه الحركة والزاوية إلى إمارة بلغت من الاتساع والقوة ما جعلها أكبر محاولة سياسية صوفية. فقد امتد عمر هذه الإمارة مدة ستين سنة كاملة خلال

¹⁷ عفا المولى الرشيد بعد ذلك على الدلائيين وسمح لهم بالإقامة في فاس ما عدا محمد الحاج وبنيه فإنه أمرهم بالهجرة إلى الجزائر حيث انتقلوا إلى تلمسان عام 1080 هـ/ 1669 م ونزلوا بحرم العباد وبها توفي محمد الحاج عام 1082 هـ/ 1671 م. وستكون آخر محاولة ثورية هي التي قادها حفيده أحمد بن عبد الله الدلاني - الذي وصفته المصادر بالشجاعة والإقدام - بمساعدة أتراك الجزائر وذلك سنة 1088 هـ/ 1677م فقد عاد إلى الدلاء وألف حوله برابرة الأطلس المتوسط لكن المولى إسماعيل تمكن من القضاء على آخر ثورة دلانية سنة 1089 هـ/ 30 مارس 1678 م. انظر: 1. ابن الحاج، الدر المنخب، ج 6، ص. 34.

¹⁸ نسبة لقبيلة إدا وسملال وهي قبيلة الشيخ أحمد أوموسى الذي ولد سنة 853هـ/ 1460م ببومروان وتحول بعد مرحلة من الرعونة واللغو في صباه إلى حالة من الذهول والاستغراق التام والإقبال على السياحة. وقد أخذ عن الشيخين عبد العزيز التباع وأحمد الراشدي الملياني وركز في طريقته الصوفية على الإكثار من الصلاة على النبي. وبعد أن تكاثر أتباعه ببومروان انتقل إلى تروالت وخاصة شطرها الشرقي الذي توجد به زاوية أحمد بن موسى وإيليج. وقد خلف الشيخ خمسة ذكور هم: عبد الله ومحمد وعليّ والحسن وعبد الباقي، وسيكون المتطلعون للسلطة من أحفاده من أنباء كل من محمد وعليّ.

تعاقب أربعة من الأمراء أولهم إبراهيم بن محمد بن الشيخ أحمد أو موسى وهو أول من تصدى للإمارة وأعلن الثورة بسوس، وقد عمل السلطان زيدان على مواجهته. لكن طموح الإمارة السياسي ظل حاضراً. وإن كانت الأخبار شحيحة حول مرحلة الحسن بن عليّ بن الشيخ فإنها تتضح أكثر مع ذكر سيرة عليّ بن محمد بن محمد بن الشيخ الذي تميز نشاطه منذ بداية العقد الثالث من القرن، واستطاع أن يطور الإمارة ويؤسس عاصمتها¹⁹. وقد وصفت المصادر شخصيته بالقوة والعظمة. ويمكن اعتبار أسباب هذا البروز ضمن القوة المجالية والاقتصادية التي تحققت للإمارة، فقد اعتمد على عائدات الخط التجاري الساحلي، ونجح في مراقبة المناطق التي كانت خاضعة لسيطرة يحيى الحاحي، ثم تمكن من الاستيلاء على درعة وسجلماسة وهي المناطق التي خاض فيها صراعات طويلة الأمد مع الشرفاء العلويين منذ عام 1040هـ/1630²⁰ إلى أن انهزم في درعة مرتين بعد سنة 1051هـ/1641م بقليل، ولم تذكر له مواجهة أخرى إلى أن توفي عام 1069هـ/1659م أي قبل تحطيم عاصمته بحوالي أحد عشر عاماً²¹.

أما رابع أمراء الأسرة فهو محمد بن عليّ بن محمد الذي خلف والده وانهزم أمام قوات السلطان المولى رشيد.

أية قراءة تركيبية لهذا الواقع؟

نقصد بالتركيب في هذا السياق المقاربة الزمنية، وذلك من خلال نظرة أفقية نحاول أن ننفذ من خلالها إلى استغلال أهم الاستنتاجات، وتقديم أهم ما بدا لنا من ملاحظات بخصوص

¹⁹ - قال محمد المختار السوسي: «إنه أعظم رجل من "ملوك الطوائف" وأنه لم يكن بالمقدّم وإلا لامكنه اقتحام البلاط السعدي». إيليج، ص. 42.

²⁰ - كان صراع العلويين مع أهل حصن تابو عصامت قد دفع كل طرف للتحالف مع القوات المحلية، فاستعان المولى الشريف بأهل إيليج، بينما تدخل الدلائون لنصرة الزبيريين أهل تابو عصامت. ثم ساءت العلاقة بين بودميعة ومولاي الشريف نظراً لصعوبة المرحلة وكثرة المناوءات حتى احتال على المولى الشريف وأسرّه ووجهه إلى إيليج إلى أن اقتاده ولده مولاي محمد وخلصه من الأسر واستطاع أن يخلص تافيلالت من السوسيين ويهزم أباحسون في درعة

²¹ - شرع عليّ بوحسّون المعروف أيضاً ببودميعة وصاحب الساحل في بناء العاصمة إيليج سنة 1021 هـ، وسكنها سنة 1031 هـ ثم تمت توسعتها. وقد استخدم في البناء عدداً من الأسرى الأوربيين فجاءت مدينة جامعة لجمال العمارة ومثانة التحصين، إلى جانب أهمية الموقع والتحكم في الخط التجاري الساحلي نحو الصحراء.

الحركة الصوفية التي تزعمتها الزوايا المغربية والتي تجاوزت الدور الروحي والنظري والتربوي إلى الفعل السياسي والتأثير الاجتماعي العميقين، ونذكر من الاستنتاجات ما يأتي:

■ طبعت الزوايا التاريخ الحديث بشكل لافت للنظر، فمنذ نهاية القرن 15 م ومستهل القرن 16 م نلاحظ مشاركة قوية للحركة الصوفية في تنظيم أمور الجهاد، والدفاع عن وحدة البلاد. لكنها أصبحت لذلك في دائرة المراقبة المخزنية وتعرضت في منتصف نفس القرن للتضييق والامتحان، لينتهي القرن بصفحة من تأكيد الولاء والمحافظة على مظاهر الانسجام التي تتطلبها مصالح السلطة الزمنية.

■ تدخلت الزوايا منذ مستهل القرن 17 م في أمور الجهاد. إلا أن تدخلها لم يقتصر على مواجهة الأجنبي المحتل، وإنما شمل ملء الفراغ ومواجهة الفتن، وحماية المناطق البعيدة والهامشية التي لم يعد يصلها نفوذ المخزن السعدي بعد أن أفل نجمه وتراجع دوره السياسي، مما خلق ظرفية مواتية لظهور زعامات صوفية ثورية ترأست حلقات من المواجهات التي تمت في إطار صوفي حيناً: ابن أبي محلي والحاحي، الحاحي وبودميعة، وبودميعة ومحمد الحاج الدلاني... ونجدها أيضاً في إطار صوفي مخزني: فالسلطان زيدان السعدي يواجه حركة ابن أبي محلي (استغلال حركة صوفية لمواجهة حركة صوفية)، والسلطان مولاي محمد يقف أمام كل من بودميعة ومحمد الحاج؛ ويتابع المولى الرشيد تصفية الأطماع السياسية لرجال الزوايا بشكل حاسم. بينما يتصدى المولى إسماعيل لآخر أنصار العصبية الدلانية في الأطلس المتوسط. وقد كان للأخوين موقف واضح بخصوص إنهاء هذا المخاض السياسي الصوفي الثوري، باعتماد أسلوب الامتحان والتخريب والتغريب. أما الأسلوب الذي اعتمد في نهاية القرن فتمثل في مراقبة الزوايا والسعي إلى التدجين والسخرة، فهناك استقلال ممنوح ولكنه مقترن بينود جديدة للمشروعية متمثلة في إيجاد حدود للتوافق غالباً ما تتجلى في منح الظهائر السلطانية وتقديم الهبات، ومقابل ذلك اعتمدت أساليب الولاء التي تمثلت في العمل بالتقية الدينية والدعوة للطاعة.

■ انخرطت الزوايا في كل أشكال التعبئة الاجتماعية بمحاربيتها للفقر والجوع

والمرض والجهل والظلم، فكانت بذلك نواة لتنظيم الأتباع ومن خلالهم المجتمع.

■ لم يختلف طابع النزعة الجهادية في تاريخ الزوايا المغربية. ويمكن ملاحظة ذلك من قراءة المشروع الجزولي الأول الذي قام على أساس تجنيد أكبر عدد من الأتباع من أجل الجهاد والدعوة إلى الوحدة، وهي من الاستنتاجات الإيجابية لبعض الأبحاث الجامعية⁽²²⁾. كما أنه مشروع دلت عليه الأحداث اللاحقة عندما أصبحت الزوايا سريعة التكيف مع الظروف، ولذلك وجدناها تتحمل أعباء الزعامة السياسية عندما فقدت الثقة في الزعماء، وهو ما يتناسب مع قراءة تطورات ومتغيرات هذا القرن.

■ اختلفت الزوايا باختلاف المحيط البشري الذي وجدت فيه، كما اختلفت باختلاف نهج زعمائها وباختلاف عصبيتها القبلية. ويمكن أن نمثل هنا بالعصبية الدلانية في قبائل الأطلس المتوسط التي ظلت جذوتها ملتهبة قائمة، فما كاد أحمد بن عبد الله الدلاء يرجع من تلمسان بعد أن عفا المولى إسماعيل عن الدلانيين، حتى قامت ثورة قوية بتأييد قبلي صارخ جعلها ترتب في خانة الثورات الكبيرة التي واجهها المولى إسماعيل، وتطلبت منه الإعداد والعدة والحملات المتكررة، وكانت آخرها الحملة التي قادها بنفسه وانتهت بإخمادها سنة 1089 هـ/ 1678 م.

■ خدمت الزوايا المجتمعات القبلية في المناطق البدوية والناثية، كما خدمت المجتمعات الحضرية، وإن كان لكل مجال سلطته المعنوية وخصوصيته، لذلك تباينت أساليب عملها ومؤشرات علاقاتها المخزنية وحتى إذا سلمنا بنسبة الإيجابية في الخدمة والأساليب فإننا لا نغفل أهميتها الدينية والدنيوية في حياة الناس.

■ خضعت الزوايا للمراقبة بشكل أو بآخر لأن حضورها القوي في المجتمع جعلها ملاذاً في أوقات الشدة؛ (طلب الشفاعة والأمن، والاحتماء). وبخصوص هذا العنصر الأخير، لا بد أن تراقب مخزناً وقد تكون المراقبة وردود الفعل صارمة أحياناً بخصوص بعضها لأن

(22) انظر دراسة عبد الله نجمي، بين زروق ولوثر: في الإصلاح الديني والعصور الحديثة، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، دراسات مهدة للأستاذ إبراهيم حركات، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1997، ص. 77 وما بعدها.

التقديرات المخزنية تختلف؛ فعندما تكون مسوغات الاحتماء بالزوايا مشروعة وموافقة لشرع الله نجد الاستجابة والصفح، لكن الأمر يختلف عندما يتعلق الأمر بما يعتبر مخالفة لشرع الله. فمن يلجأ إلى هذا المكان المقدس يجب أن لا يكون خارجاً عن النظام العام وعن شرع الله الذي هو أساس الاحتماء. وتصدق نفس القراءة على حدود نشاط الزوايا ونوع تأثيرها في الرأي العام.

ونخلص إلى القول بأن استنتاجات هذه النظرة التركيبية تتجلى في تأكيد قوة التأثير الاجتماعي والفكري لمؤسسة "الزوايا" دون أن تغفل خصوصية الظرفية الزمنية وما يمكن أن تضيفه الدراسات الجامعية مستقبلاً.

نغيسة الذهبي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة